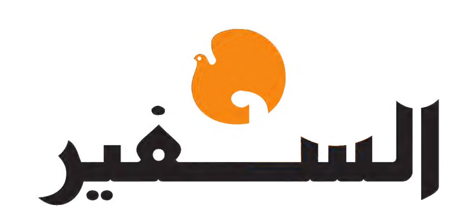


خصوصية لبنان

المؤلف: خليفة عصام

التاريخ: 29-06-2010
رقم العدد:11628

مع وفاة د. عادل اسماعيل يخسر لبنان واحداً من كبار مؤرخيه، وعلماً من كبار الذين رسّخوا دبلوماسيتنا على قاعدة العلم والوطنية والانفتاح. مع جيل المؤسسين لنهضة الأبحاث التاريخية حول لبنان (أمثال أسد رستم وفؤاد افرام البستاني والأمير موريس شهاب وغيرهم) تفاعل، ومثلهم وتعمق في تقميش المصادر المحلية والخارجية. في العام 1958 أصدر كتابه المرجع عن تاريخ لبنان (1840 - 1861) بالفرنسية، وبعد ذلك اهتم بتاريخ لبنان والمنطقة من خلال الوثائق الدبلوماسية. فأصدر ألوف الصفحات التي كانت مرجعاً لكل جيل الباحثين الشبان. عرف راحلنا، قبل غيره من المؤرخين المسلمين اللبنانيين خصوصية لبنان، فكان سباقاً في التأكيد على مرتكزات هذا التاريخ والعوامل الداخلية والإقليمية والدولية التي كانت فاعلة فيه. وكذلك كان على اقتناع بأن التاريخ ليس عملية ترديد للاحداث كما ترويها كتب الآخرين دون مراجعة او نقد، وإنما هو دراسة وتحليل وتوضيح عوالم ومقومات المجتمع الذي نشأت فيه تلك الاحداث وتطورت. ورغم ضخامة العمارة التاريخية التي أنجزها الراحل، فقد كان على يقين ان «الحقيقة التاريخية هي أمر نسبي، وهي معرضة في كل وقت للتبدل مع وجود ملايين الوثائق التي ما برح الغبار يكسو اضباراتها القديمة والمتراكمة. وكان دائماً يردد اننا في أول الطريق وأن ما يتم انجازه هو مدماك متواضع يضاف الى صرح لا نهاية له». على امتداد أكثر من ثلاثين سنة، قام مؤرخنا بجمع الوثائق من فرنسا، وروما، ومدريد، وفيينا، وبرلين ولندن واسطنبول وغيرها من حواضر الغرب والشرق، وقام بعملية طبع وتحقيق لها في مجلدات أنيقة وفّرت للباحثين منجماً من المعلومات، لم يقدم على القيام بمثلها مؤرخ لبناني آخر.

وكان لي شرف المساهمة في الموسوعة التي صدرت بإشرافه وهي بعنوان (لبنان في تاريخه وتراثه)، عام 1993 (مركز الحريري الثقافي). وقد احترم إصراري على استعمال بعض المصطلحات التي حاول ان يعدلها، وتراجع عن تعديلات كان قد اقترحها على مقالتي عن اتفاقية سايكس ـ بيكو، وهذا من صفات العلماء الذين يحترمون تعدد الآراء. لقد انتقد بعض المؤرخين اللبنانيين العمل التوثيقي الاستثنائي الذي أنجزه د. اسماعيل. وحاشا ان لا يقع مثل هذا العمل الكبير في أخطاء. ومهما يكن من أمر صحة بعض ما ورد في هذه الانتقادات، إلا ان ريادة عادل اسماعيل وفضله الاستثنائي على البحث في تاريخ لبنان هما حقيقة ثابتة لا يمكن لأحد ان ينكرها. لقد استراح العالِم من رحلة التفتيش الدائم عن وثائق لبنان الشعب والدولة والوطن والاقتصاد والثقافة. لقد توفي مؤرخنا الكبير ولبنان ـ كما قال في كتابه (– Le Liban histoire d'un people 1965, P11.) لا يزال يتعرض «لخطر الغزاة من جيرانه الذين يريدون قطع غاباته من أجل بناء معابدهم والسفن». لقد خلص د. عادل اسماعيل مقدمته لموسوعة (لبنان في تاريخه وتراثه) بالقول: «أملنا وطيد بأن تكون مادة للدرس والتفكير والتأمل. فالبحث التاريخي ليس سرداً لأحداث الماضي بقدر ما هو تفسير للحاضر وانفتاح على آفاق المستقبل». ومع وفاة استاذنا نحن على يقين من انتصار لبنان الشعب والدولة والوطن والاقتصاد والثقافة على كل التحديات. وإن العمارة التاريخية الشاهقة التي تركها لنا ستستمر مع الأيام منارة تلهمنا شجاعة الدفاع عن قيم العلم والوطنية والروح الانسانية التي كانت وستبقى في أساس كل تقديم.



الكلمات الدالة

اسماعيل عادل | المؤرخون | لبنان